جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

دروس في نحو الاختلاف في المشرق العربي

ماستر 1/ سد 2 – لسانيات عربية

إعداد الأستاذ الدكتور عبد الجليل مصطفاوي.

*****

المحاضرة3: صور من الخلاف النحوي في كتاب الإنصاف.

من الطبيعي أن ينشأ الخلاف– في أي علم من العلوم– بين أقطابه تبعاً لفهومهم ومناهج تفكيرهم. وقد بدأنا نلمس هذا الاختلاف، منذ أوائل القرن الثاني الهجري، حين وجدنا عبد الله بن إسحاق الحضرمي يلتزم بقياس صارم في تعامله مع الشواهد– ولاسيما نصوص الفرزدق– التي تخرج، في ظاهرها، عن أحكام اللغة و ضوابطها، بخلاف يونس بن حبيب الذي كان مرناً في قراءته لكثير من الأشعار التي كان يردُّها بأناة إلى طبيعة اللغة، ويلتمس لها وجها من الوجوه اللغوية المسموحة. وكان سيبويه يذكر الاختلاف في التأويل والتوجيه عند الخليل ويونس بن حبيب وعيسى بن عمر في المسألة الواحدة، وكثيرا ما كان يتبع ذلك برأيه.

ويكاد الدارسون يتفقون على أنَّ المسألة الزنبورية، التي جمعت بين سيبويه والكسائي– تلميذي الخليل– كانت بداية الخلاف ومنشأه؛ لأننا وجدنا بعدها أنَّ كلاًّ منهما كان له أتباع ومريدون، فقد تزعم سيبويه البصرة وتزعم الكسائي الكوفة. وينبغي أن نشير ههنا إلى أن " الدرس اللغوي حتى عصر هذه التلمذة كان بصريَّ النشأة مُوحَّد المنهج، نهل منه البصريون والكوفيون على حد سواء، ثم فُرضت على كلا الفريقين عوامل خاصة أن تختلف السبيل ويتباين المنهج "[1].

[1]– الدراسات اللغوية عند العرب، محمد حسين آل ياسين، ص393.

والحق أن هذا الاختلاف في التعامل مع تراكيب اللغة وأساليبها ومسائلها المتنوعة اختلاف طبيعي له مزاياه الإيجابية، فقد خدم العربية ووسَّع فضاءاتها وأغنى ميدانها، وفتح المجال للعقل العربي لإثرائها وتسهيل استعمالاتها شعرا ونثرا. فإذا كانت البصرة تتعامل بصرامة مع النصوص التي يوهم ظاهرها بالخروج عن القواعد والأحكام، فإن الكوفة كانت تتعامل بمرونة مع هذه النصوص، وتبحث لها عن تخريج يتناسب مع طبيعة العربية وخصائصها.

ودونك نماذج من هذا الخلاف الذي أورده ابن الأنباري في كتابه الموسوم: **الإنصاف في مسائل الخلاف**. والواقع أن ابن الأنباري- وهو من المدرسة البغدادية- لم يلتزم بالحياد في عرضه لصور الاختلاف بين المدرستين، إذ وجدناه ينحاز قليلا للبصرة في معظم المسائل التي عرضها، على الرغم من أنه صرَّح- في مقدمة مؤلَّفه- قائلا:" وذكرت من مذهب كل فريق ما اعتمد عليه أهل التحقيق، واعتمدت في النصرة على ما أذهب إليه من مذهب أهل الكوفة أو البصرة على سبيل الإنصاف، لا التعصب والإسراف "[2].

1-هل يجوز أن تجيء واو العطف زائدة:

ذهب أهل الكوفة- ومعهم بعض البصريين كالأخفش والمبرِّد وأبي القاسم بن برهان- إلى أن الواو يجوز أن تكون زائدة. وهنا يجدر أن نذكر ملاحظة، وهي أن الخلاف لم يكن مكيناً؛ بحيث أنه لا مناص لنحوي من البصرة سوى الالتزام برأي مدرسته التزاما لَازِباً لا فَكَاك منه. فهاهو المبرِّد زعيم البصرة بعد سيبويه يذهب مذهب الكوفيين في هذه المسألة. وأما أهل البصرة فرفضوا زيادتها.

أ-حجج الكوفيين[3]:

قالوا إن الدليل على ذلك أنها قد كثرت زيادتها في القرآن الكريم وفي كلام العرب، ومن ذلك قوله تعالى﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا **وَ**فُتِحَتْ أَبْوابُهَا﴾، التقدير: فُتحت أبوابُها، والواو زائدة بدليل قوله تعالى في سَوْقِ أهل النار﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوابُهَا ﴾، وقوله تعالى﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ

[2]- الإنصاف في مسائل الخلاف، ج1ص5.

[3]- نفسه،ج2ص456-459.

كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ **وَ**اقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾، فالواو زائدة والتقدير: اقترب؛ لأنه جواب(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ). ومن ذلك قول امرئ القيس[4]:

فلمَّا أَجزْنا ساحةَ الحيِّ **وَ**انتحَى بنا بطنُ حِقْفٍ ذي قِفافٍ عقَنْقَلِ

والتقدير: انتحى، والواو زائدة؛ لأنه جواب(لمَّا).

ومثله أيضا قول الآخر[5]:

حتى إذا قَمِلتْ بطونكم ورأيتم أبناءكم شَبُّوا

وَقَلبْتُم ظهرَ المِجنِّ لنا إنَّ اللئيمَ العاجزُ الخَبُّ

فالواو زائدة والتقدير: قلبتُم.

ب- حجج البصريين:

وأما البصريون فقالوا: " الواو في الأصل حرف وُضع لمعنى؛ فلا يجوز أن يحكم بزيادته مهما أَمكن أن يُجرى على أصله، وقد أمكن ههنا، وجميع ما استشهدوا به على الزيادة يمكن أن يحمل فيه على أصله "[6].

وقد ردُّوا كل الشواهد التي ذكرها الكوفيون، وحكموا بأصالة الواو في مواضعها[7]. فالواو في قوله تعالى﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا **وَ**فُتِحَتْ أَبْوابُهَا﴾ عاطفة والجواب محذوف، والتقدير: حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ

---

[4]- الحِقْفُ: المُعوجُّ من الرمل، ج أحقاف وحِقاف، وحُقوف. والقِفاف ج قُفٌّ وهو ما ارتفع من الأرض. والعقنقل: المتداخل من الأرض.

[5]- قَمِل: شبِع. والمِجَنُّ: التُّرْس، وقَلَبَ المِجَنّ تستعمل مجازا بمعنى أسقط الحياء وفعل ما يشاء. والخَبُّ والخِبُّ: الغشَّاش، الخدَّاع.

[6]- الإنصاف في مسائل الخلاف، ج2ص459.

[7]- نفسه، ص459 وما بعدها.

أَبْوابُهَا فازوا ونعِموا. وكذلك الشأن في قوله تعالى﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ﴾؛ فالواو عاطفة والجواب محذوف، والتقدير: قالوا يا ويلنا. والواو أيضا عاطفة في بيت امرئ القيس، والجواب محذوف تقديره: خَلوْنا ونعِمنا. وكذلك الشأن في قول الآخر، والتقدير: بان غدرُكم ولُؤمُكم.

وحذف الجواب في هذه المواضع- كما يؤكد البصريون- من باب توخِّي الإيجاز والاختصار. وهو كثير في القرآن الكريم وكلام العرب، وهو أبلغ من الذكر؛ لما فيه من توقع الجواب وتنوع احتمالاته كما في قوله تعالى﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى﴾، وقوله تعالى﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

2-هل تأتي أو بمعنى الواو، وبمعنى بل[8]:

أجاز الكوفيون ذلك وأنكره البصريون.

أ- حجج الكوفيين:

قالوا أن ذلك كثير في القرآن الكريم وكلام العرب، كما في قوله تعالى﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ **أَوْ** يَزِيدُونَ﴾؛ فهي عندهم بمعنى: **بَلْ** يزيدون، أو بمعنى: **وَ**يزيدون. وقله تعالى﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً **أَوْ** كَفُوراً ﴾؛ أي: **وَ**كَفوراً. ونحو ذلك قول الشاعر:

بدتْ مثلَ قَرْنِ الشمسِ في رونقِ الضحى وصورتِها **أَوْ** أنتِ في العينِ أجملُ

أراد الشاعر: **بَلْ** أنتِ، في العين، أملحُ. ومن ذلك قول النابغة:

قالتْ ألا ليتما هذا الحَمامُ لنا إلى حمامتنا، **أَوْ** نصفُه فَقَدِ

أي: **وَ**نصفُه. قالوا: " والشواهدُ على هذا النحو من كتاب الله تعالى وكلام العرب أكثرُ من أن تحصى"[9].

---

[8]- ينظر الإنصاف،ج2ص478.

[9]- نفسه، ص480.

ب-حجج البصريين:

أما البصريون فقالوا:" الأصل في (أو) أن تكون لأحد الشيئين على الإبهام بخلاف الواو وبل؛ لأن الواو معناها الجمع بين الشيئين، وبل معناها الإضراب، وكلاهما مخالف لمعنى أو. والأصل في كل حرف أن لا يدل إلا على ما وُضع له، ولا يدل على معنى حرف آخر "[10].

والراجح عندهم أن (أو) في قوله تعالى﴿ **أَوْ** يَزِيدُونَ﴾ للتخيير، والمعنى أنهم إذا رآهم الرائي تخيَّر في أن يقدِّرهم مائة ألف أو يزيدون على ذلك...أو هي للدلالة على الشك، والمعنى أن الرائي إذا رآهم شك في عدتهم لكثرتهم.

وأما قول الشاعر فلا حجة فيه أيضاً؛ لأن أو فيه للشك، وليست بمعنى بل. قالوا:" لأن مذهب الشعراء أن يخرجوا الكلام مُخرج الشك وإن لم يكن هناك شك، ليدلوا بذلك على قوة الشبه، ويسمَّى في صنعة الشعر تجاهل العارف كقول الشاعر:

فيا ظبيةَ الوعْساءِ بين جُلاجِل وبين النَّقا أأنت أم أُمُّ سالمِ؟

وكقول الآخر:

باللهِ يا ظَبَياتِ القاعِ قلنَ لنا ليلايَ منكنَّ أم ليلى من البشرِ؟

وإن لم يكن هناك شكٌّ ولا شبهة، وإذا كانوا يخرجون الكلام مخرج الشك، وإن لم يكن هناك شك لم تخرج أو عن أصلها "[11].

وأما في قوله تعالى﴿ آثِماً **أَوْ** كَفُوراً ﴾ فـ(أو) للإباحة. قالوا:" أي قد أبحتُك كل واحد منهما كيف شئت، كما تقول في الأمر: جالس الحسن أو ابن سيرين؛ أي قد أبحتك مجالسة كل واحد منهما كيف شئت"[12].

---

[10]- نفسه، ص480-481.

[11]- نفسه، ص481-482.

[12]- نفسه، ص483.

وأما قول النابغة فقد روي بالواو أيضا(ونصفُه)..وحتى في حال روايته بـ(أو) فهي باقية على أصلها؛ لأن التقدير: ليتما هذا الحمام أو هو ونصفُه، على حذف المعطوف عليه وحرف العطف كما في قوله تعالى﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ﴾؛ أي: فضرب فانفجرتْ"[13].

*****

هذه نماذج من تعامل نحاتنا الأوائل مع النصوص العربية- قرآنا وشعراً- تشي بمعرفة دقيقة بخصائص العربية، وتنوع أساليبها، وعمق معانيها ودلالاتها. ولا شك أن هذا الصنيع في تحليل التراكيب والنظر إلى المعاني المحتملة ممَّا يثري هذه اللغة الشريفة، ويقوِّي أسسها. ونحن هنا لسنا بصدد ترجيح رأي على رأي، أو مذهب على آخر، وإنما نسعى إلى الوقوف على هذه الآراء جميعها لتكون لنا أداة جديدة من الأدوات الكثيرة في فهم النصوص واستنباط وجوهها المحتملة.

ويبقى النحو وأبوابه- في نظرنا- من أهم الأدوات التي تفتح مجال تحليل الخطاب لاحباً أمام الدارسين والنقاد..لأن تحليل الخطاب في لغة من اللغات منطلقه الأول هو معرفة اللغة وأصولها وأحكامها وقوانينها، ثم الاستئناس بأدوات أخرى نفسية وثقافية واجتماعية.

[13]- نفسه، ص483.